عابد الشمس

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

عزيزتي الحائرة

ما عساى أن أقول لك بعد أن مرضت ، وهل يبرئ الجرح غير يد الطبيب ؟ وطبيبك مع الأسف رجل لا يعرف من المرأة غير جسمها ، ولا يلمس فى الحياة غير مواطن المادة

وأنا لست طبيبة يا صاحبتى ... كل ما أجود به على الخلائق حنانى وعطفى ، وهل يكفى الحنان لتضميد الجروح ؟ لا أظن !!

ودليلى أن الحنان يفتح دائماً فوهة القلب فإذا بعيون من المواطف تتطلع إلى ما هو أعمق من الحنان وأغزر من العطف ، إلى المنهل العذب الذى يفيض بالرحيق المشتهى الذى يصوره النطق فى شبه حروف تؤلف كلمة واحدة ـ الحب ـ ويترنم به الحس ويسميه الشعور !

إذن لا فائدة من مواساتى بعد أن صدمتك الحياة فى الصميم ، لتردك إلى محط المعرفة فيلسوفة بغير تعليم

خلى عنك نصائحى فإنها لا تجدى ... ومتى أصلح التصبح مخطئاً أو هدى ضالا ... ؟

حسبك ماعلمتك إياه الحياة عن طريق صدمتك .

إنك الآن أكثر منى تفهماً للحياة

ولا أحسبك إلا غاضبة على عند ما تعرفين الآن أننى لا أجفف من دمعك ولا أرفه عن أساك ، بل أشدك من شعرك فى قسوة لا تتفق مع رحمتى التى جذبتك إلى كنفى فى تواضع رغبة فى مواساتى وطمعاً فى نصيحة ترد إليك كبرياءك الذاهبة

أجل أجذبك فى عنف وألقى بك فى اللهب الذى أشعلته بيديك ... ليتطهر جسمك وتتصهر ماديتك فى بوتقة الألم والعذاب ... وفى النهاية ستشعرين عن يقين أنك شفيت رغم ما تركه اللهب على جسمك من علامات ما كابدته من عذاب

وليس اللهب الذى أدفعك إليه كالنار أو الشرر المتطاير ... إنما هو لهب النفوس كلها أجمعه بجرة قلم من محيط الكون فى دائرة محدودة ، ولا ألقيك وحدك إنما ألقى معك فى وسط هذه الدائرة الملتهبة بغير دخان ، أنفاس الرجل الذى خانك ، وأخرجها فى حرارة كما يقول وقد أتقن صياغتها بقلمه البارع

هذه الأنفاس التى تحيى وتميت ... الأنفاس التى أحييتك وبعثت فى نفسك حلو الآمال ثم أماتتك تاركة خلفك أمر الآلام

هذه الأنفاس هى رسائل الرجل الذى أحبك بالقلم وتركك بالقلم ، وهى التى أدفعها الآن ثمناً لما أصابنى منك من جهد الخيال ... فأعرضها لتكشف للناس سورة من صور الأضاليل ... كيف يبدع القلم التصوير ولا يعاف القلب التغرير ؟

والآن لا أرد إليك رسائل صاحبك التى بعثتها

إلى لأطلع عليها وأبدى رأيي فيما ينتجه القلم الصامت على ضوء الحب الكاذب .

لا أردها إليك سراً بل أردها إليك جهراً بل صحيح كل من يجذب نظره ضوء الأدب ...

وقد لا يفيدك هذا — على ما أعتقد — إذ سوف يترجم عليك كل قلب رحيم ... فاجمعي كل ما يصل حسّاك من مواساة الأرواح اللامرئية واستعيضي بها عما أصابك من بلاء روحي سببه لك ذلك الرجل الذي يحب كل النساء كما تقولين ويعبد كل شمس متجسمة في امرأة

***

آنستي (هبة)

إنها لسكتة غير قصيرة طال فيها أمد الصمت ، ولست أدري بماذا أو كيف أقطع عليك هذا الصمت الذاهل فأحرمك تأملات فلسفية ، ورؤى شعرية سحرية ، ولست أدري أيضاً أتخطىء أنا أم مصيب حين أفاجئك بهذه الرسالة فأقطع عليك سلسلة خواطرك وإلهاماتك ، وأنقلك من دنياك المشرقة الواعية ، إلى دنيانا العابسة الفارغة؟ وسواء أخطأت أم أصبت فليس ثمة محيص من الكتابة إليك بعد ما انتظرت أن تكتبي لي ولو بما يطمئنني على سلامة عودك ، ولكني لم أحظ حتى الآن إلا بمرارة الانتظار ! ولم يكن في الاستطاعة أن أكتب إليك فيما سبق ؛ فأنا شاب لم يألف الكتابة بين الصخب والضجيج والارتحال والانتقال ، ولم يكن ذلك هو السبب الأصيل ، ولكن هنالك سبب آخر ، ذلك أني رأيت أن أخصك بأدوات جديدة للكتابة فلا أكتب بها أو فيها إلا لك ، ولست أدري تعليل هذا الخاطر ، ولعله خاطر شعري ، وعلى كل حال فهو خاطر جميل ، والآن وقد اكتملت هذه الأدوات وارتحت بين أكناف الريف الوادع الجميل فإني أكتب إليك ذاكراً تلك السعادة التي غمرتني بمعرفتك

وبعد: فإني طائر شاعر يعيش على الأحلام وبقتات بالذكريات لا يحب أن يصطدم بالواقع ولكنه دائم الاصطدام ، فهو يود الحياة مستقيمة سهلة ، لا عوج فيها ولا نتوء !

وإني لأطمع أن تفتحي لي كوة أطل منها على دنياك ، رياضها وجنانها ، هضابها ونجادها ، وأن تمديني بفيض من الأحلام والإلهام في هذه البيئة أحيا ، وبين هذه المآلف الحبيبة أتنقل وأعيش

— ٢ —

« هبة »

وصلتني رسالتك وأول ما ألاحظه عليها قصرها — هذا القصر المخل — مع أني أريدها طويلة كالمسافة التي بيننا ، متعددة المناظر كالتي أتعلاها وأنا في الطريق إليك !! . أريدها رسالة يشفق البريد من حملها ، ولكنك أبداً ضنينة حتى بالكلام ... آه ... « هبة »

لقد وقعت في الشرك حتى لم يعد لي أمل في النجاة ، فأنا — ولا أخفي عليك — قد حاولت أكثر من مرة ألا أسترسل معك في الكتابة . بل لقد حاولت جهدي ألا أطلعك على ذاتي مجردة عارية ، ولكن قائل الله الثلاثة : يدي ، وقلبي ، ونظري أحبك ، نعم — وأعبدك ، وأحرق ذاتي بخوراً في هيكلك المقدس ولكنك لا تحسين أبداً بهذا الحب العابد المحترق !

يا هبة . لا أحب أن أشرح أو أصف لك ما أعاني ، وكل ما أحب أن أقوله إني وهبت قلبي لك

فإذا شئت أن يحيا فهو لك . وإذا شئت أن يتحطم فهو لك أيضاً . ولكن روبدك فقد سرقت قلباً ونسيت مفتاحه، وكنت أريد ألا أعطيك مفتاحه حتى يظل أمامك طالسما وتظلين أمامه فى حيرة ولكن ما انتفاعى بالمفتاح ما دام قد سرق الكنز ؟

يا هبة

قلبى شىء إلى آخر حدود الشىء، فهو إذا جاع أو عطش فلا خيرات الأرض وأنهارها ولا أنهارها وبحارها بكافية لأن تسد جوعته أو تطفئ حرارة ظمئه .

ولعلك بهذا تعرفين كيف تنتفعين به ومنه .

— ٣ —

هبة !

ليتنى أدرى ما الذى دهاك عنى ومثلك لا يمكن أن تكون إلا وفية كريمة ...

يشهد الله أنى ما حملت لك أو أحمل إلا كل عاطفة شريفة ونية طاهرة مطهرة وقلباً يرف عليك

ويشهد الله كذلك أنى لم أحلك من نفسى إلا فى أعمق مكان ولم أضمك إلا فى شغاف الآلمة الأولى أتوسل إليهم بصلواتى وفناء ذاتى ، ويشهد الله أيضاً أنها لكلمات يسيل بها القلم خالصة مخلصة لا تعرف الرياء أو النفاق . فى مثل اضطراب الأمواج خواطرى فى هذه الأيام ، وكمثل الغيب نفسى المظلمة — !

ولو علمت أى حدث جرىء وأية زلة ارتكبت لجثوت أمامك تائباً مستغفراً . لقد أفهم أن تنكر لى الحياة فلا آبه لها وأن يأتمر بى الواجدون فلا أحفل بهم ، وأن يقطع الأصدقاء حبل مودتى فلا ألتفت إليهم

ولكن الذى لا أفهمه أو أطيقه أن تنقضى أنت منى . وهذا الذى ألوذ به وأطلعه على خيبة نفسى بعد اليوم إذا كنت تعاملينى معاملة أولئك الأرقاء ؟

ألا فاتقى الله فى نفسى وقلبى فإنى لا أعتقد أنك تهانين ما أعانى وتجدين ما أجد وتحملين نفسك ما لا تطيق !

وإنى لأتمنى أن تظل نظرتك إلىّ واحدة على الأيام .

وإذا كنت هفوت هفوة لم أقصدها فحسبى عقاباً هذا السكوت الذى أقض مضجعى وأمض نفسى وأطلق فى سماء حياتى سحب اليأس والضيق والبرم بالحياة

وأخيراً ما زلت لك المخلص الأمين .

— ٤ —

« هبة »

ومهما يكن من شىء فإنى مدين لك بهذه الرسالة التى فتحت أمام ناظرى آفاقاً جديدة وعوالم غريبة من نفسك — نفسك التى طالما لففتها بثوب من الحذر والغموض . وهكذا لا بد للورد من وخز الشوك . والآن بعد أن اجتزت فترة الاختبار فى تجربتك القاسية فإنى أرى نفسك تبدو أمامى عارية من كل ثوب مجردة عن كل غطاء ، وإذا هى طفلة وديعة طاهرة نبيلة تهيج أحياناً وتثور ولكن هياج النبوغ وانفعال العبقرية وما أشبهنى بالموجة تحركها النسمة فإذا هى غاضبة ثم سرعان ما يستحيل هذا الغضب إلى رحمة وحنان على الصخور

وإنه ليسرنى أن تثرى بين يدى نفسك ماحوته ووعته ثم لا بأس عليك من ذلك — وماذا يكون

لو أخذ كل منا من صاحبه أخاً لنفسه يهمس إليه بما يختلج في خاطره إن خيراً أو شراً دون خجل أو حياء، ورب أخ لك لم تلده أمك .

* * *

أعود إليك يا صاحبتي ...

كان يكفي أن أقف بك هنا لأترك القارئ ينسرح بخياله في عالم نوراني يرى في سمائه كل ما يشتهي المخلص من أمان حسان

ولكن لا بد أن أعقب على تعليقك بعد هذه الرسالة ... إذ تقولين إن تلك الرسائل رغم سحرها لم تبلغ عمق نفسك وإن الشك ظل يراودك ويقف بك بعيدة عن رغبات صاحبك حتى اشتدت حيرتك بين رغبتك وحذرك ...

قلبك يدنيك منه

وعقلك يقصيك عنه ...

وضباب الشك يشرف على أحلامك فيشوه حقائق أمانيك ...

وظللت هكذا حتى كتب لك :

(هبة)

إسمحي يا هناه !

إني لأعجب من تمردك عليّ هذه الأيام ومحاولتك مسّي بالإيجاع، مسّاً دون مقتضى أو داع !

أتقصدين ذلك حقاً ؟ أم تفعلين على سبيل التدلل ؟

أما الأول فلا أطيقه، وأما الثاني فقد أحمله !

على أن المؤلم أنك في الوقت الذي أنتظر فيه رحمتك تتقضبين، وأقترب فتبعدين، وأتكلم فتسكتين، وأتوق فتشكين !

ومتى تؤدين رسالتك يا فتاتي ... إن لم تؤديها في مثل هذه الظروف القابضة ؟ إنني لقادر على أن أعيش في كل صقع وأحيا في كل مكان، وأن أقابل الشدائد فلا تنال مني إلا كما تنال الرياح العاتية من الجبل الأشم !

ولكن الذي لم أزل أهفو إليه وأفتش عنه هو القلب !

القلب الذي يؤنس وحشتي ويبدد ظلمتي ويقدرني دائماً على المقاومة والتجدد في الحياة !

ولا تظني أني أجرب قلمي بهذه الجمل الموشاة، ولا تظني كذلك أنها كلمات كتلك الكلمات التي اعتاد الرجل أن ينال بها إعجاب المرأة ويستولي على قلبها، ولكنها كلمات أروّي فيها طويلاً قبل أن أسطرها — فهي كلمات من لحم ودم، كلمات تزخر بالحياة وتموج بالصدق، ولولا أني واضح ظاهر ما سجلت إليك كلمة واحدة من هذا ...

وأنا إذ أيدي لهفتي إليك وانشغالي بك - أحب أن تقدري هذه المواطف النبيلة

المواطف التي لا ترى إلى شيء وراءها، فإني أحبك لما بهرني من روحك القوية السمحة ودماثتك الفائقة وشاعريتك المتنوعة، أما الجسم وإن كان رشيقاً فاتناً بديعاً فلا شأن لي به ولا مطمح، وإذا كان هناك ما يخيفك من الرجال فليس الذنب على وإنما هو على سماحتك التي تفرض كل الرجال ملائكة لا أناساً

أما بعد فطائرك الفرد لا يزال بين يديك، فحذار أن تثقلي عليه بهذه الأساليب التي لا تجدي معه شيئاً وإلا ألجأته أن يهجر جنتك آسفاً، وإذ ذاك يظل قابعاً في وكره فلا ينفعك ولا ينفع نفسه، وبذلك تشقين نفسك وتشقينه !

أرجو أن يصلك هذا وقد عادت إليك ابتسامتك وإشراقك . أنا الآن طريح الفراش يا هبة ولا أحد معي يؤنسني إلا زفرات حارة أصعدها، فالرحمة الرحمة، — واعلمي أن كلمة منك طيبة كفيلة بأن تزيح عني عبئاً ثقيلاً فهل أنت فاعلة ؟

* * *

(هبة)

إني لأتألم ... بل أعجب كيف أنك إلى الآن لا تزالين تجهلين نفسيتي وعواطفي وميولي تماماً ... وأنا أطمع في أن يشملني حبك وتغرقني رغبتك الأكيدة في أن تكوني بجانبي إلى النهاية مهما حالت بيننا الحوائل

أنا الآن في المنزل جالس إلى مكتبي بعد أن عدت من العمل خائر القوى ، ومع أن الحر شديد والتعب يكاد يمسك عليّ مسارب أفكاري ، فإن بي نزوعاً إلى استئناف الكتابة إليك

وأحب أن تذكري أن حبي لك غريب لا يمت إلى ما تواضع عليه الناس بصلة، حب يميزه عن سائر أنواع الحب عمقه وطهارته وخلوده وإخلاصه !

لست أنكر أني عرفت من قبلك ألف قلب وقلب وحطمت ألف قلب وقلب ... حطمتها لأني لم أجد فيها القوة السحرية الخفية التي تفتح عيني على النور وتوقظ في أشواق الحياة وتدفعني إلى الخلق والإبداع ، وتجعل الوجود في ناظري

حطمت كل هذه القلوب لأنها كانت كالمرائين والدمى ، بل لأنها كانت (كورد الحمار ١١) منظر ولا رائحة !

وإذا كنت لا أنكر ذلك فإني لا أنكر كذلك أنك كنت المثل الأعلى الذي تصبو إليه روحي وتحن أحلامي . لقد رأيتك فرأيتني منجذباً إليك انجذاب الحديد بالمغناطيس ، ونظمت إلى عينيك فإذا بي أرى فيهما رهبة معبد مقدس ... لقد كانتا عميقتين عمق الأبد تنظران إلى السماء كأنما تبحثان عن سر ضائع . وأخيراً استمعت إلى حديثك فإذا كلمات عليها طابع الدوام كأنما تحمل تجاريب القرون ...

حينئذ شعرت أني ولدت ميلاداً جديداً وأن روض حياتي قد نجمت فيه أزهار من نوع جديد ! وحينئذ أيضاً حرصت على مودتك وعاهدت نفسي أن أكون حريصاً على الوفاء لك ما بقي بجسمي نفس يتردد !

والآن ، هل تدرين مدى تأثيرك في حياتي !

لقد تقلتني من الظلام إلى النور وأجريت في أعصابي خلاصة أجيال من عزم وإرادة وعبادة للحق والقوة والحرية والجمال !...

ثم هل تدرين أيضاً وفائي لك في بعدك ؟

إني أستميض بك عن رؤية الناس ومودتهم فأنت تسامرينني في وحدتي واجتماعي وأنت تمسحين عن جبيني عرق الملل والكلال كلما أجهدتني عجلة الحياة !

وأنت تفتحين أمامي أودية المجهول فأرودها ! وأنت تلازمينني في منزلي ، وأنت تؤنبينني كلما أهملت في واجب ! وأنت في النهاية تعصمينني من التردي في مهاوي الهلاك ومهاوي الضلال ! ...

فلهذا أحبك حباً صرفاً

ولهذا أدعوك إلى أن تصححي نظراتك إلى علاقتنا السماوية المباركة

وكل ما أريده أن تهبيني كل عاطفتك ولتتصارخ حتى بالرغبات الخفية ولتقفزي إلى دنياي

كما أعوزك الصدق والحب فى دنيا الناس ولتكونى وفية لى فى محضرى ومغيبى ولتتحسسى ميولى وتفقدى ما أرتاح إليه

لا أريد أن تعتبرى عما تطوى عليه جوانحك بكلمة ولتكن باختلاجة أو حركة أو روح عامة تموج فى رسائلك فتشعرنى بما لى عندك من منزلة أو اعتبار

إننى لا أريد أن تقف علاقتنا عند حد السطحية بل أريد أن أسمع منك : دع هذا وافعل ذاك وتعال هنا واحذر أن تتأخر وأغضب منك إذا فعلت كذا

إننى لا أكون غالياً إذا قلت لك إن اهتمامى بك يربو على اهتمام الوالدين والإخوة ، ولست آسفاً على شىء ، فإننى ما دمت أنت بجانبى أستمد من تشجيعك قوة ومن حبك أشعة تبدد أمامى ضباب الحياة ! ...

آه ! ماذا أقول ؟ ومالى أجشمك ارتياد هذه الوديان المتأشبة ؟ وأخيراً ... تقى أنى سأطوى قلبى على حبك وسوف أكون لك الدوحة الفينانة التى تفزعين إليها فتنىء عليك من ظلالها ، وتضمك إلى أحضانها كلما لجأت إليها

واعلمى أن النيب يضمر لك حياة خالدة بحبى .

هبة ...

كلمات كثيرة تريد أن تثب من شفتى على أسلة هذا القلم ولكنى أكبحها بقوة هائلة !

آه لو تدركين ما أريد ، ولكن أنت لا ترحمين مهجة صب .

كنانة الذكرى

وليست هذه الكنانة إلا مجموعة من الرسائل وعاها ظرف واحد وهبطت على منك فى فترات متقطعة ...

ولست أدرى كيف اجتذبتنى إلى عالمها بين هضاب ووهاد وزهور وأشواك وتقطيب وإشراق وهدوء وثورة وثرثرة وصمت وآمال وآلام وحقائق وأحلام وتلميح وتصريح وبيان وغموض ، ولقد قرأتها رسالة رسالة ، واستوعبتها فكرة فكرة ، ووقفت على مايحسن أمامه الوقوف فرأيتك فيها على اختلاف أغراضها وتباين مناحيها مثالاً للفتاة الطيبة السريرة ، الفتاة التى تحيا فى الحياة بعقل عالم وخيال كاشف وروح مستغرق وخاطر متوثب وإحساس متفتح وشعور غامر دافق !

أجل ، ورأيتك أيضاً مثالاً للعبقرية الفائقة الخالقة العبقرية التى تعبد الفن وتفنى فى ذاته كما يفنى الصوفى بين نور الإله الجليل ، ولقد وجدت فى هذه الرحلة الروحية متاعاً لم أستلذه أو آلفه من قبل حتى لقد أمضيت فترة طويلة وأنا فى ضيافتها ذاهلاً عن نفسى وعما يغمرها من صخب الحياة وضجيجها ، وهكذا هدانى بل عودنى بحالك الكتابى أن أفزع إلى كنانة الذكرى كلما غلقت الأبواب ، وأوصدت المنافذ دونى وإن فى هذه الكنانة لمستودعاً حافلاً بأفانين الساوى وألوان النزاء ، وذلك غاية ما أتمناه منك فاكتبى بعد ذلك أو لا تكتبى ، وجودى أو لا تجودى ، وناى عن شاعرك أو لا تناى ، فما عاد يحفل بهذا أو ذاك مادام ظفر منك أيتها البخيلة ، بكنانة الذكرى .

* * *

(هبة)

كان مما يقدرنى على أعبائى الثقال وكان مما يجمل الحياة فى ناظرى ، شعورى بأن الحياة رزقتنى حبيبة أفزع إليها وألوذ بها لدى الصدمات

وكان كذلك مما يعزينى ويحببنى فى الحياة

شعوري أيضاً بأن هذه الحبيبة قد تخصصت في دراسة ميولي وأهوائي حتى أصبحت تعرف سبحات فكري وخلجات نفسي وهتفات شعوري

وكنت أستبعد أن تدب بيننا بَدَوَاتُ الشك وهمسات الظنون فيما بيننا من حب ولده الامتزاج السامي وغذته العاطفة المنزهة عن الشوائب ورعاه الوفاء الكريم . واليوم ، بل ومن قبل اليوم ، يدهشني أن هذه الحبيبة قد بدأت تنأى بجانبها وتتمرد على صلتنا الروحية المقدسة !!!.. فهي مرة منفعلة غاضبة ، وأخرى صامتة لا تتكلم ولا تجيب ، وثالثة متوعكة المزاج ورابعة تعد بأن تتكلم ، وأخيراً هي تشتم رائحة النفاق في أنفاس !!.. ماذا أيتها الساحرة !

أبهذه السرعة تريدين أن تتحللي من صلتنا ، وأن تحطمي كل ماشدناه من صروح ، وأن تتنكري لمن حاشاه أن يتنكر لك مهما جازيته على الإخلاص حرماناً وعلى الوفاء جحوداً ونكراناً

إنه لمن الجائز أن تبعثي بمثل هذا الكلام الصارم الملقى على عواهنه إلى من اعتادوا إرسال الكلام على عواهنه تزجية للفراغ ودفعاً للسأم

أما أنا الذي أفكر فيما أكتب وأفكر فيما أقرأ ! أيمكن أن يحدث مني هذا ؟

على أن ما أذهلني حقاً أن تختمي رسالتك بقنبلة تذهب شظاياها بقلبي ، فهل تعرفين حقاً أنني أحاول أن أتلهى بحبك

إنك لتؤذين نفس الشاعر وتسيئين إليها حينما تزجين بها في أخلاط النفوس البشرية وتظنين أنها سيئة من طبيعتهم أو نسجت على غرارهم !

وما دام الأمر كذلك فإني — مع إخلاصي الدائم لك — قد صممت على أن أرجع إلى عالمي القديم ... عالم الظلام والغيب ، وسأقفل من ورائي باب سومعتي الأزلية وهيهات أن أصغي لأي صوت ! أو أستجيب لأي دعاء ! أو أخف لأي نور !

وبعد فإذا كنت لا تأسفين على أي شيء ، فإني آسف على كل شيء ! وإذا كنت قد كتبت ما كتبت إلى أخيراً وبسمة العبث والطفولة تهوم على ثغرك ، فإني قد كتبت هذا ودموع قلبي تكاد تغرقني ، يا إلهي ، حتى من كنت أرجو أن تتحقق على يديها الآمال تكون هي آفة الآمال !

يا إلهي إن أحشائي تتقطع والدم الفائر يكاد يلهب شراييني ، فأنقذني يا إلهي وألق على نفسي الطليحة وروحي الكليمة برد العزاء

* * *

إلى هنا أكتفي بهذه اللمحات من رسائل صاحبك وهي في الواقع خلاصة فناء الفكر في القلم ..

ولا أقول فناء القلب أو الروح في القلم لأن فناءها في الواقع معناه خلود الحب ... أما وقد تلاشى ذاك الحب فلا أظن للقلب أو الروح سلطاناً عليه ..

على أن هذه الرسائل لا تخلو من إغراء يبعث الحمرة في وجه الحسناء ويشعرها بأنها إنسانة محبوبة مرغوب فيها ...

ولعل صاحبتي صدقت ذلك لأنها سايرت صاحبها بخواطرها عن طريق قلمها كما يقول وباعترافها أيضاً .. إنما كانت فطنتها أشد من إيمانها

مرت الشهور وهو يحاول أن يثبت لها حبه بأعذب الألحان الشعرية وهي حائرة بين ما يبعثه في صدرها من تحذير عاطفي ، وبين ما تلمحه عليه من آثار القلق والاضطراب والركود والاستسلام لخواطر لا تتعلق بها ... فلطالما حذرتها عن العذارى وأسمعها

أناشيد الهوى المستمر بإيحائهن

ومن الطبيعي أن تسترسل في خيالها وتقيم لكل مشهد من ألحانه قصة واقعية أثرت في حياته تأثيراً أهاب بشاعريته إلى التغني ...

وشاءت أن تظل في عراب تحفظها وتداب على اختباره حتى تتكشف حقيقة نفسه فكتبت إليه تقول :

أتركك لتنعم بالحب في كل واد

فكتب إليها يقول :

يا لك طفلة ! أنا أحب ؟ ومن أحب ؟ وهل خلق الله بعدُ تلك التي تستطيع أن تنهض بحبي...؟ إنني يا عزيزتي ما أحببت مطلقاً ، ولن أحب أبداً ... إنني يوم أحب أحطم أو أتحطم أو هما معا . وأين هذه الحبيبة التي لها من الرهافة والحساسية ما تستطيع أن تلمس نبضات قلبي واهتزاز مشاعري وخلجات روحي ؟

إن هذا الشعر الذي كان يروقك أنت وغيرك كذب كله، إنه ضرب من الغزل التجريبي ألفيت به في محيط القلوب الفارغة انتقاماً منها وسخرية بها ، لقد كان لي حبيبة واحدة ... آه نعم حبيبة صفعتني على خدي بيد رطبة صغيرة يوم قالت لي :

أنت مجنون

حبيبة ضربت على نخوم عالمها عجائب الرقى . ثم سعيت إليها في ضباب يتنفس عن شذى البنفسج وأنا أعزف على أوتار قلب جديد أناشيد مجنحة . حتى إذا انتهيت إليها تباهت وتجاهلت ونفرت مغمغمة :

أنا لا أعرفك

إذن دعيني من حديث الحب . فأنا لا أحب، فأي فتاة تطيق الإقامة بجانب رجل مريض النفس والعقل ؟

رجل يثور ويهدأ ويحب ويكره في آن واحد ، وهانذا أكتب ولا أدري إلام تنتهي مثل هذه الكتابات الضالة .

ومع أني مضطرب الشعور موزع الخاطر ؛ فإني أحب أن تعتقدي أني لم أخن عهدك مطلقاً ولم أله بمخلوق أو مخلوقة — حقاً إن حياتي كانت وما زالت ملأى بالعجائب والغرابات ، ولكن أي مغريات هذه ؟ إنني لست ممن يجرون وراء ملذاتهم حسبما اتفق، فأنا رجل فنان شاذ، فإذا سقطت فهي سقطة الفنان والحمد لله إذ نجانا ، وما كان لمثلي أن يتلهى بالموتى . وبعد فإياك أن تثيري الضباب برياحك الهوجاء ، ودعيني — دعي هذا المريض يحلم — يحلم بمقدم هذا الطبيب — ويميناً لئن لم يشفني من هذا الداء لألقين به من حالق ، ولأذهبن أنا وهو إلى الجحيم .

* * *

إلى هنا أدع صاحبك وأعود إليك . كيف خدعك حسك أنت التي خلقت من مجموعة أعصاب حساسة ...؟

قد يكون للأسلوب الجذاب تأثيره على الأفئدة والأفئدة الشاعرة على الأخص ، ولكن ما صلة الحب بهمسات القلم ؟

قد تعترضين وتقولين ، وهل كانت همسات القلم إلا خواطر النفس وسوانح القلب !.

ومعك الحق ، ولكن في غير هذا الزمن يا صاحبتي ...

فقد طغت المادية على كل شيء وشوهت جلال الروحانية الشفيفة ...

اسمعي إلى جدتك عند ما تقص عليك حديث

قلبها . واسمى إلى نفسك — أنت المستديرة المثقفة ثم قولى أيكما أصدق وأعف وأقدر على الاحتمال والصبر ...

الفطرة التى حاربتاها فى الصميم وشوهتاها بظواهر المدنية الراهنة التى عفت على الصدق والعفة والقناعة والطمأنينة

وفى الواقع لا ذنب لك ولا ذنب لصاحبك أيضاً كلاكما مسرح لأضاليل الحياة . أنت معذورة لأنك حسبت أن قلبك الطيب جدير بحب رجل ، وهو معذور لأن المرأة تناديه من كل مكان ، فى الشارع وفى النوادى ، فى المتاجر وفى المراقص ، وهى مستسلمة تعبث بكل شىء فى سبيل تحقيق أمنية ترجوها ...

ولا بد أن تأمل ولا بد أن تسعى إلى أملها ... لأن الرجل فى هذا العصر لا يبحث عن المرأة المتحصنة التى تحبس نفسها داخل دارها خوفاً على سمعتها وكرامتها ...

إذن كان أمر صاحبك فى النهاية ... لا بد منه

* * *

قارئى فى دهشة يتساءل : وما هذه النتيجة ؟ وكنت أحب أن أتركه حيث هو يتساءل ويفكر .. ولكن لا بد من إجابته وإلا اتهمنى بالقصور لأنه تعود أن يجد على مائدته الأدبية كل ما تشتهى نفسه أما أن يفكر ويبحث عما وراء هذا ونهاية ذاك فلم يحن ذلك الوقت بعد ...

ذهبت صاحبتى لعيادة صاحبها المريض بعد أن أفهمها أنها سبب علته وأنه فى طريقه إلى القبر ... ذهبت إليه دون أن تحدد موعداً وكانت لها بأسرته علاقة تبيح لها الزيارة فى كل وقت

لم تجده ... فانتظرته وراحت تتلهى بمطالعة الكتب والمجلات الملقاة على مكتبه ... ودفعها الفضول إلى فتح درج مكتبه ... وبيد حذرة سحبت بعض لفافات الورق ...

وبسرعة البرق الخاطف تطلعت إلى محتوى كل رسالة ....

رسائل غرام ممنوعة ...

كتبت إلى ثبت من الفتيات ...

عائشه ، فاطمه ، نعمات ، سنيه ، نفوسه ، زينب الخ هذه الأسماء ...

وكلها تفيض بأحاديث الحب المشبوب المستعر

وكلها تصور غرام الكاتب

وكلها تسمه تحت قدمى المرأة فى خضوع لا يتفق مع كبرياء الرجل

رسائل ... بما تحويه من لهب وشوق وحنين ورغبة وأمل وتوثب ... كتبها لعشرات الفتيات وكل ما يفرق بين هذه وتلك ... اسم المرسل إليها

* * *

كان ذلك يكفى لرد الفتاة إلى محراب عقلها ... محطمة ذلك الهيكل الخيالى الذى سمته حقيقة وسمت به إلى ما وراء الخلود ، لكن هل كل فتاة يمكن أن تحذر وتعود إلى نفسها دون عناء كهذه ؟

لقد خفف الشك وطأة المصاب فهل كل فتاة تشك فى الرجل الذى تحبه ! ! أنا أدعو إلى الشك فيه لتظل بعيدة حتى إذا صدمها القدر به عز عليها البكاء .

جميل الحسينى